كليوباترا انها راهنت على ان تنفق مليوناً من الليرات في مأدبة واحدة ولذا اذابت كية من اللؤلؤ الثمين في الخامض الخليك ثم شربت المحلول وأكتشف بعد ذلك حوامض اخرى غير الخل

وعرف القدماء كثيراً من الزيوت كزيت الزيتون واللوز والخروع واستعملوها لاغراض مختلفة . فزيت الزيتون مثلاً كان يستعمل لاستخلاص العطور من الزهر وكانوا يحصلون على مثل هذه الزيوت من الحبوب والفواكه اما بعصرها او باغلائها مع الماء وقد عرف القدماء السكر والنشا والمواد الشبيهة بالقلويات

هذا وقد لاحظ القدماء في عمليات الاختمار والتعفن تصاعد ما نسميه الآن اكسيد الكربون الثاني وقالوا بانهُ هواء ضارٌّ بالصحة ومهلك احياناً ولكن لم يدر في خلدهم انهُ غاز يختلف عن الهواء العادي فبقي هو وغيرهُ من المواد التي تتولد بالاختمار مجهولاً

جامعة برمنجهام عبد الحميد احمد

الاوهام وتولدها ونموها

اخبرنا صديق صادق رفيع المقام انهُ يعرف رجلاً اذا سألتهُ ان يُحضر لك نوعاً من الفاكهة تفاحاً او موزاً او برتقالاً مدَّ يديهِ في الهواء واعادهما مملوءتين بالفاكهة التي طلبتها . وقال انهُ رآهُ يفعل ذلك عياناً . وطلب منهُ مرةً ان يأتيهُ بخمسين جنيهاً فمدَّ يديهِ في الهواء واعادهما مملوءتين بالذهب . ولا شبهة في انهُ قصَّ علينا ما يعتقد صحتهُ ولكن هل هو صحيح لذاتهِ . اي هل مدَّ ذلك الرجل يديهِ في الهواء وقطف منهُ الاثمار واستخرج الذهب

نحن تجاه هذا الخبر بين امرين إما ان نصدق ان بعض الناس يستطيعون ان يقطفوا الاثمار من الهواء وان يستخرجوا منهُ الذهب المسكوك وإما ان نسلم بان بعض الناس يتوهَّم انهُ رأى ما لا حقيقة لهُ . اما الامر الاول فينفيهِ اختبار البشر في كل العصور وكل البلدان ولو وُجد انسان واحد يستطيع ان يستخرج الذهب من الهواء لصار اغنى من قارون وتعلم الناس منهُ هذه الصناعة فصار الذهب ارخص من الماء . ولو امكن قطف الاثمار من الهواء لابطل الناس زرع البساتين والبساتين وعاشوا بلا تعب ولا نصب . واما الامر الثاني او الفرض الثاني وهو ان يتوهَّم الانسان انهُ رأى ما لا حقيقة لهُ فكثير الوقوع وما من احد الاَّ ويرى كل يوم في احلامهِ اموراً كثيرة لا حقيقة لها وكثيراً ما يتخيلها وهو صاحٍ ومن ذلك الخيالات والتخيلات والهواجس على انواعها واذا ضعفت قوة الحكم فيهِ حينئذٍ ولو قليلاً

كما تضعف وقت التعب العقلي والتعاس والسكر والجوان حسب ان ما يُخيَّل لهُ حقيقي . ويسميهُ مثل ذلك في حالة الاستهواء سواءٌ استهواهُ غيرهُ او استهوى هو نفسهُ . واكثر الذين يقولون انهم شاهدوا الخوارق التي لا يؤيدها الاختبار والعرف العام خُيِّلت لهم وعقولهم مستهواة كما تُخيَّل لهم اذا غلبهم النعاس

وبديهي اننا اذا كنا بين فرضين احدهما مناقض لاختبار الناس في كل العصور والآخر لا يناقضهُ الاختبار بل يؤيدهُ وجب علينا ان نأخذ بالفرض الثاني لا الاول

ثم ان التخيلات قد ترسخ في الذهن فيصدقها ويتوسع فيها عن غير قصد فلا يعمم الاركان الى شيء من هذا القبيل ما لم يدرَّن حالاً كما حدث والاَّ فالوهم يغيرهِ ويغيرهُ حتى يخرجهُ عن حقيقتهِ وبذلك يفسَّر كثير من الغرائب التي تروى مخالفة لاختبار الناس والعرف العام

ذكر الدكتور تكت حادثة من هذا القبيل حدثت لزوجتهِ مفادها انهُ كان مرة مسافراً في بلاد بعيدة فوقع وكُسرت رجلهُ ولم يشأ ان يكتب بذلك الى زوجتهِ لئلاَّ يشغل بالها ولكنهُ خاف ان يبلغها الخبر من غيرهِ فيقع ما كان يحذرهُ ولذلك اختار اسلوباً آخر فاستنبط قصةً هزلية فرض فيها انهُ وقع وكسرت رجلهُ وكتب اليها بها فاجابتهُ على كتابتهِ واشارت الى القصة التي لفقها لها وقالت انها سُرَّت بما فيها من الفكاهة . فعلم من ذلك انها لم تسمع شيئاً عن كسر رجلهِ . وبعد بضعة اشهر سمعها تصف لاحدى صديقاتها مقدار ما خامرها من القلق وانشغال البال حينما كسرت رجل زوجها لانها شعرت كأن مصيبة كبيرة حلَّت بهِ . وبديهي انها لو شعرت هذا الشعور حقيقة لما كُسرت رجل زوجها لكتبت اليهِ واخبرتهُ بهِ حينما كتب اليها بالقصة المشار اليها . ولكنها لما علمت ان رجلهُ كُسرت حقيقة توهمت انها شعرت بشيء من ذلك قبلاً ثم نما هذا الشعور في نفسها رويداً رويداً حتى صارت تتكلم عنهُ كأنهُ حدث وقتما كسرت رجل زوجها

واغرب من ذلك ان كبار القضاة الذين ينتظر منهم ان يكونوا اكثر الناس تدقيقاً في تمحيص الاقوال معرَّضون للخطإ مثل غيرهم مثال ذلك ان السر ادمند هورنبي الذي كان رئيس القضاة في المجالس القنصلية الانكليزية في شنغاي للصين واليابان كتب الى جمعية المباحث النفسية انهُ كان يجيز لمكاتبي الجرائد ومحرريها ان يأتوا الى بيتهِ ويأخذوا الخبار الحاكمة منهُ . ومنهم محرر جريدة مسائية وكان غريباً في اطوارهِ محباً للعزلة . قال السر ادمند هورنبي «وفي اليوم الذي حدثت فيهِ الحادثة التالية سنة ١٨٧٥ او ١٨٧٦ دخلت مكتبي بعد العشاء بساعة او ساعتين وكتبت حكماً في قضية وكان ذلك قبل نصف الليل بنصف ساعة

ودعوت مدير يتي واعطيتهُ ورقةً وضعت صورة الحكم فيهِ وقلت لهُ اعطهِ للمحرر فلان حينما يأتي ليخابرهُ وذهبت لانامَ . ونومي خفيف فاستيقظ لاقل سبب واما زوجتي فنومها ثقيل جدًّا حتى يصعب ايقاظها ولا سيما في اول نومها . وبعد ان تمتُ سمعتُ قرعةً على باب مكتبي فاستيقظت ولكنني ظننتُ ان المدير دخل ليرى هل أُطفئَ الغاز وهل النار في الموقد مطفأة . ثم حاولت ان انام واذا انا بصوت قرع على باب غرفة النوم فظننت انهُ المدير يريد ان يقول لي شيئًا فقلت لهُ ادخل . فُتح الباب واذا انا بالمستر . . . . (المحرر) يجلس في سريري وقلت لهُ اخطأت يا فلان فان هذا ليس المكتب اذهب الى المدير وخذ الحكم منهُ . ولكنهُ لم يخرج بل دخل ودنا من سريري . فقلتُ لهُ يظهر لي انك مجنون اخرج حالاً اهذا جزاء المعروف . ونظرت الى وجههِ فاذا هو اصفر شاحب كوجوه الموتى لكنهُ كان لابسًا ثيابهُ العادية وعلى وجههِ امارات العجز والرزانة . فقال لي اني عارف ان دخولي الى هنا وقاحة مني ولكنني لم اجدك في مكتبك فجاسرت على الدخول اليك . وكان الغيظ قد اخذ مني كل مأخذ ولكنني رأيت في وجههِ ما منعني من النهوض اليهِ وطردهِ من بيتي فملكت طبعي وقلت لهُ لقد اسأت في ما فعلت معي فتعقَّل واخرج من هنا . فلم يخرج بل جلس على سريري عند رجليَّ وظهر لي كأنهُ كان متألمًا والتفتُّ الى الساعة حينئذٍ فوجدتها عند الواحدة والدقيقة العشرين . فقلت لهُ اني اعطيت صورة الحكم للمدير منذ الساعة الحادية عشرة ونصف فاذهب اليهِ وخذها منهُ . فقال اعذرني لو عرفتَ كل احوالي لعذرتني فقد ضاق الوقت فقل لي خلاصة الحكم وانا اكتبهُ . قال ذلك واخرج دفترًا من جيبهِ . فقلت لهُ اني لا اقول لك شيئًا اذهب الى المدير ولا تزعجني وتوقظ زوجتي والاَّ اضطررت ان اخرجك بالقوة . فحرَّك يدهُ قليلاً . فقلتُ لهُ من ادخلك . قال لا احد . فقلتُ قبَّحك الله ما هو غرضك امكران انت . فاجابني بتأنٍّ كلاَّ ولم يعد في الامكان ان امكر بعد الآن وانما ارجو من سيادتك ان تخبرني بخلاصة الحكم لان وقتي قصير . فقلت لهُ يظهر انك تهتمُّ بوقتك ولا تهتم بوقتي وهذه آخر مرة اسمح فيها لمحرر ان يدخل بيتي . فقال نعم هذه آخر مرة اراك فيها

« وخفت ان اوقظ زوجتي بالتكلم معهُ فاملَيت عليهِ خلاصة الحكم وظهر لي كأنهُ كان يكتبها بالخط المختزل ثم نهض وشكرني لاجل ما ابديتهُ لهُ ولرصفائهِ من المعروف ولاني عذرتهُ الآن على حماقتهِ وفتح الباب وذهب ونظرت الى الساعة حينئذٍ فكانت واحدة ونصفًا بعد نصف الليل »

(وبعد ان قصَّ كيف استيقظت زوجتهُ حينئذٍ وهي تقول انها كانت تسمع كلامًا

فاخبرها بما وقع واعاد لها في الصباح تفصيل ما حدث قال :

« وذهبتُ الى المحكمة قبيل الساعة العاشرة فدخل المنظم غرفتي ليلبسني الطيلسان وقال لي حدث البارحة حادث مؤلم وُجد فلان المحرر ميتاً في غرفته . فقلت لهُ أصحيح ما تقول ماذا جرى لهُ واي ساعة مات . فقال يظهر انهُ دخل غرفتهُ الساعة العاشرة حسب العادة ليكتب ودخلت اليهِ زوجتهُ نحو الساعة الثانية عشرة لتقول لهُ صار وقت النوم فقال لها انتهيت ولم يبقَ عليَّ الاَّ ان اكتب حكم القاضي . ولما استبطأتهُ بعد ثلاثة ارباع الساعة ذهبت اليهِ ووصوصت من صير الباب فرأتهُ جالساً يكتب فلم تشأ ان تزعجهُ . وعند الساعة الواحدة والنصف ذهبت اليهِ ثانية ووقفت بالباب تكلمهُ فلم يلتفت اليها فظنت انهُ نائم فدخلت لكي توقظهُ فاذا هو جثة هامدة وكان دفترهُ ملقىً على الارض وها هو معي فارسلتْ واستدعت الطبيب فوصل بعيد الساعة الثانية ففحصهُ واستنتج انهُ مات منذ نحو ساعة . هذا ما اخبرني بهِ المنظم اما انا ففتحت الدفتر واذا فيهِ صورة الحكم هكذا

المحكمة العليا امام رئيس القضاة

في دعوى فلان على فلان

نطق رئيس القضاة هذا الصباح بالحكم التالي . وبلي ذلك خط مختزل غير واضح

« فاستدعيت قاضي التحقيق وطلبت ان يكشف الكشف الطبي ويحقق مع زوجة الرجل وخدمهِ هل خرج من بيتهِ بين الساعة الحادية عشرة والواحدة وهل كان في الامكان ان يخرج من غير ان يروهُ . فاسفر التحقيق عن انهُ مات بمرض قلبي وانهُ لم يخرج من بيتهِ في ذلك الوقت ولا كان في الامكان ان يخرج من غير ان تدري زوجتهُ على الاقل بخروجهِ . ولم انشأ حينئذٍ ان انشر ما رأيتهُ في ليلي لكي لا تطبل بهِ الجرائد واكتفيت بان اخبرت بهِ احد القضاة وصديقاً او صديقين ولكن لما عدت الى بيتي للغداء طلبت من زوجتي ان تقص عليَّ ما تتذكرهُ مما قلتهُ لها ليلاً وكتبت ما قالتهُ »

(وهنا اورد شهادة زوجتهِ بصحة ما كتبهُ ثم قال)

« واقول الآن ما قلتهُ قبلاً وهو انني لم اكن قد تممت لما دخل المحرر غرفتي . وقد مضى الآن تسع سنوات على هذه الحادثة ولا ازال اتذكرها كأنها حدثت امس . ولا اشك مطلقاً في اني رأيت ذلك الرجل عياناً وتكلمنا الكلام الذي ذكرتهُ آنفاً »

« وفي الصباح ردَّ لي مدير بيتي الظرف الذي فيهِ صورة الحكم فسألتهُ هل اقفل الباب

حسب العادة قبل نام وهل في الامكان ان يدخل احد البيت بعد اقفال بابهِ فقال انهُ اقفل الباب ولكن كان يقفلهُ دائمًا واغلاق الباب يكفي لمنع فتحهِ من الخارج ولم يقفلهُ لان ليس لقفلهِ تأثير في منع فتحهُ من الخارج . وهذا هو الواقع . واتضحت مآثر الخدم فقالوا في انهم هم فتحوا الباب في الصباح بالمفتاح على جاري عادتهم . ولا شبهة عندي انهم كانوا صادقين في ما قالوا . ودارُ الخدم بعيدة عن غرف النوم ولكنها متصلة بها بسرداب . ومنزل المحرر يبعد عن منزلي نحو ميل وربع . وكان ضعيف الجسم لا يستطيع الاسراع في مشيهِ والغالب ان لا يمشي بل يسير راكبًا في مركبة . انتهى

هذا ما كتب بهِ هذا القاضي الى جمعية المباحث النفسية ونشر في جزء يوليو سنة ١٨٨٤ من مجلة القرن التاسع عشر . ولما وصلت تلك المجلة الى الشرق الاقصى اطّلع عليها محرر جريدة هناك اسمهُ فردرك بلفور فكتب الى محرر مجلة القرن التاسع عشر الكتاب التالي

« سيدي العزيز . قرأت المقالة التي كتبها غرني وميرس والقصة التي اوردها عن لسان السر ادمند هورني وهي قصة تجلّي روح لهُ حينما مات صاحبها فجأة . فهو يشير الى المستر هيو لانج الذي كان يحرر كورير شنغاي . وانا اعرف السر ادمند هورني والمستر لانج وكنت محررًا لجريدة في شنغاي حينئذٍ . وقد قالت السر ادمند في قصتهِ ان زوجتهُ كانت نائمة في الغرفة معهُ لما تجلّت لهُ روح المستر لانج مع ان زوجتهُ هذه وهي الثانية توفيت قبلما توفي المستر لانج بسنتين ولم يتزوج ثالثة الاَّ بعد وفاة المستر لانج بثلاثة اشهر . وقال السر ادمند ايضًا انهُ امر قاضي التحقيق فكشف الكشف الطبي . وقد سألت قاضي التحقيق الآن فانكر ذلك . وقال السر ادمند ايضًا انهُ كان عازمًا ان ينطق بالحكم في صباح اليوم التالي وقد بحثت في جريدة المحكمة (التي انا محررها الآن) عمَّا حدث في ٢٠ يناير ١٨٧٥ اي يوم وفاة المستر لانج فلم اجد فيها ذكرًا لهذا الحكم . وقال السر ادمند ان المستر لانج توفي الساعة ١ بعد نصف الليل وهذا غير صحيح بل كانت وفاتهُ الساعة الثامنة صباحًا بعد ما نام الليل كلهُ على تمام الراحة »

وارسل محرر مجلة القرن التاسع عشر هذا الكتاب الى السر ادمند هورني قبل نشرهِ ليرى رأيهُ فيهِ . فكتب السر ادمند اليهِ يشكرهُ ويأسف لان كاتب هذا الكتاب لم يرسلهُ اليهِ اولاً وينبههُ الى غلطهِ . واعترف في كتابهِ هذا انهُ اخطأ عن غير عمد فقصَّ في ما كتبهُ الى جمعية المباحث النفسية ما املتهُ عليهِ ذاكرتهُ . ثم قال انهُ ان كان ما قالهُ المستر بلفور عن تاريخ وفاة المستر لانج صحيحًا فيكون طيفهُ قد زارهُ بعد زواجهِ وبعد وفاة المستر

لاتج بشهور قليلة . ولكن الراسخ في ذهنه وذهن زوجته ان الامر على غير ذلك . والقصة التي رواها لم يروها الا كشيء من الاتفاقات الغريبة ولولا اعتقاده بصدق ذاكرته ما كان رواها مطلقاً »

فهنا قاض جليل الشان معتاد امتحان الشهود وجمع القرائن للوصول الى الحقيقة وينتظر منه ان يكون من اكثر الناس تدقيقاً في فحص ما يعلم وابعدهم عن الاوهام وتزاويق الخيال ومع ذلك حلم بهذا الحلم بعد وفاته ببضعة اشهر ثم جعل الحلم ينمو في ذهنه ويتنوع فبلغ من الغرابة حداً لو صح لكان اقوى دليل على ان نفوس الناس تغادر اجسادهم حال موتهم وتلبس اجساداً منظورة مثل اجسادهم تماماً وتعمل ما يعمله العقلاء في حياتهم كالمشي والجلوس والقيام والكلام والكتابة وتعمل ايضاً ما لا يستطيع انسان ان يعمله وهو ان تدخل بيتاً والابواب مقفلة

وهذا الامر اي تخيل ما لا حقيقة له ونمو التخيل في الذهن يقع فيه كل احد ولذلك يخطئ اكثر الشهود في المحاكم في شهاداتهم ولاسيما اذا مرّ زمن طويل على ما تطلب شهادتهم فيه

سُئل قاض مشهور بسعة معارفه وشدة فراسته عما يراه في شهادات الشهود فقال اني ارى ان اكثرهم يقصدون ان يشهدوا بالحق ويقرروا الواقع ولكنهم قلما يصيبون . واذا حاول شاهد ان يتكلم بغير ما يعلمه لم يصعب عليّ ان اكتشف ذلك لاني ارى في ملامح وجهه ونغمة صوته وترتيب كلامه ما يكشف لي غرضه

وقال الاستاذ بدمور بعد ان بحث بحثاً مستفيضاً في شهادات الشهود وذكر امثلة كثيرة وبيّن ما فيها من الخطإ انه من الصعب جداً ان يوضع حدٌّ لما يقع في الشهادات من عدم الصحة فلا تخلو شهادة من الخطإ ولا حدّ لما يقع فيها منه

وقصة مثل القصة المتقدمة تلقي الريب في كل القصص والاخبار التي من نوعها . وان كانت بضعة اشهر او بضع سنوات كافية لان تجعل قاضياً جليلاً يقرر ما يخالف الواقع على خط مستقيم فما هو مبلغ الصحة في الاخبار والروايات التي تروى عن الحوادث بعد ان تحدث بسنين كثيرة . وسبيل العاقل في مثل ذلك ان يعتمد على عقله والعرف العام او اختبار الناس في كل العصور ولا يصدق ما يخالف هذا الاختبار الا بعد ان يقوم عليه ما لا يردّ من الادلة والبينات ولله درّ ابي العلاء المعري حيث قال

جاءت احاديث ان صحت فان لها ... شأناً ولكنّ فيها ضعف اسناد
فشاور العقل واترك غيره هدراً ... فالعقل خير مشير ضمّه النادي